مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 13، العدد3، (السداسي الثاني 2021م)، ص. 341- 368

مفهوم الأمّة والجامعة الإسلاميّة من منظور مقاصدي عند الطّاهر ابن عاشور

The Concept of the Nation and Islamic Community According to Taher Ibn Achour from an Objective-based Perspective

حداد ثميلة*

جامعة الجزائر 1، كلّيّة العلوم الإسلاميّة، مخبر الشّريعة، th.haddad@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2021/07/09 تاريخ القبول: 2021/08/29 تاريخ النشر: 2021/09/30

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضّوء على أحد أبرز جوانب فكر ابن عاشور، المتمثّل في هاجس الأمّة في تنظيراته وتقعيداته المقاصديّة، من خلال التّركيز على ضبط مفهومين أساسيّين هما: الأمّة، والجامعة الإسلاميّة، وبناءً على ذلك استنباط أهمّ المقاصد الكبرى المتعلّقة بهما، مع بيان الوسائل المحقّقة لتلك المقاصد.

خلُص البحث إلى مدى أهمّيّة العناية بالمقاصد العامّة المتعلّقة بالأمّة الإسلاميّة وجامعتها، وأعظم ما أراده الله لهذه الأمّة أن تكون طائعة لربّها، قويّة مرهوبة الجانب، مكتملة النّظام، مغرية للغير بالانتساب إليها. وضرورة معرفة الوسائل المحقّقة للمقاصد للنّهوض بالأمّة، فإنّ وضوح الأهداف والوسائل من أعظم أسباب النّجاح، ومن السباب ما هو مادّيّ ومنها ما هو معنويّ.

الكلمات المفتاحية: الأمّة الإسلاميّة، الجامعة الإسلاميّة، الطّاهرابن عاشور، مقاصد الشّريعة.

Abstract:

This article highlights one of the most prominent aspects of Ibn Ashour’s thought, by focusing on controlling two concepts: "the Nation" and the "Islamic Community", and based on that, deducing the most important objectives related to these concepts, with a clarification of the means used to achieve those objectives .The research concluded how

* المؤلف المرسل

important it is to pay attention to the general objectives related to the Islamic Nation and its community, and the greatest thing Allah wants for this nation is to be obedient to him, fearful, perfect in order, and tempting for others to join it. Furthermore, this research concluded the necessity to know the means used to achieve the objectives for the advancement of the nation .

Keywords : The Islamic Nation; The Islamic Community; The objectives of the Islamic Law(Sharia); Taher Ibn Achour .

مقدمة:

بسم الله والحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله؛ وبعد :

أهمّية الموضوع وسبب اختياره :

إنّ مِن كمال عدل الله وتمام نعمته أن جعل الإسلام أكمل الأديان وخاتمها، قال تعالى : ﴿...ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ٣﴾ (آل عمران:03)، وجعل الأمّة المنتسبة لجامعته خير أمّة أُخرِجَت للنّاس، ولأجل ذلك كانت الشّريعة الّتي تسوسها محقّقة لمقاصد عظيمة، وهذه الخيريّة مبنيّة على أسباب رتّبها الله عليها، سنّة الله في خلقه.

ولمّا كان للأمّة الإسلاميّة هذا الشّأن العظيم، كون جامعتها هي خير الأديان عند الله، فإنّ كلّ ما له صلة بها يستقي أهمّيته من أهمّيتها.

والعناية بالمقاصد المتعلّقة بالأمّة الإسلاميّة أمرٌ اعتنى به وأبرزه الإمام الطّاهر ابن عاشور، بل يُعتَبَرُ أوّل من نبّه على ضرورة الاهتمام بالخطابات الجماعيّة في نصوص الشّارع، واعتبار الأمّة مكلّفاً، كما أنّه أبرز المقاصد والوسائل المتعلّقة بها.

من هنا جاءت فكرة هذا المقال بالبحث عن جزئيّة ذات علاقة بهذا الموضوع متعدّد الأبعاد، ومترامي الأطراف، فلمّا كان الحكم على الشّيء فرعاً عن تصوّره، كان ضبط المصطلحات ذا أهمّية كبرى في إدراك الحقائق، وتحصيل النّتائج، وبما أنّ ابن عاشور كان من القلائل الّذين حملوا قضايا الأمّة والجامعة الإسلاميّة خاصّة في فكره المقاصديّ، فإنّ فقه مصطلحيْ (الأمّة)، و(الجامعة الإسلاميّة) يكتسي أهمّية بالغة، لما ينبني على ذلك من تفعيل لجانب كبير من المقاصد الشّرعيّة الّتي ظلّت مغفولاً عنها، أو غير موضوعة في إطارها الصّحيح.

ممّا سبق تتّضح أهمّية موضوع هذا المقال، وهي من أهمّ أسباب جعله محلّ الدّراسة، إضافة إلى أسباب أخرى من بينها قيامي ببحوث أخرى متعلّقة ببعض جوانب الفكر المقاصديّ عند ابن عاشور.

فاكتملت فكرة هذا المقال بعنوان : **(مفهوم الأمّة والجامعة الإسلاميّة من منظور مقاصديّ عند ابن عاشور).**

الدّراسات السّابقة:

حسب اطّلاعي، فإنّ بحثاً بهذا العنوان لم يُفرَد بدراسة أكاديميّة، وكلّ ما تيسّر لي الاطّلاع عليه بعض المقالات ذات الصّلة ببعض جوانب هذا المقال، أهمّها :

مقال : مقصد حفظ نظام الأمّة مقاربة مقاصديّة، عليان بوزيان، مجلّة المسلم المعاصر، لبنان، العدد140/ سنة 2011م: والفكرة المشتركة فيه مع بحثي، هي التّنبيه على عناية الشّارع بفقه الجماعة وضرورة إعادة الاعتبار للخطابات الجماعيّة في النّصوص الشّرعيّة.

الإشكاليّة :

يرتكز هذا البحث على الإجابة على إشكالية أساسيّة يمكن صياغتها كالآتي: ما مفهوم الأمّة والجامعة الإسلاميّة في الفكر المقاصدي لابن عاشور؟ وتتفرّع عنها تساؤلات فرعيّة أهمّها: ماهي العلاقة بين مصطلحي الأمّة والجامعة الإسلاميّة عند ابن عاشور؟ ما هي المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة والجامعة الإسلاميّة عند ابن عاشور؟ ما هي الوسائل الأساسيّة المحقّقة لتلك المقاصد؟

أهداف الموضوع : ترمي هذه الدّراسة إلى تحقيق الأهداف الأساسيّة التّالية :

1/ بيان مفهوم الأمّة والجامعة الإسلاميّة.

2/ الكشف على أهمّ المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة والجامعة الإسلاميّة عند ابن عاشور.

3/ الإشارة إلى أهمّ وسائل تحقيق تلك المقاصد الكبرى.

4/ التّوصّل إلى إدراك مقاصد الشّارع من الأمّة، وفقه أسباب تحقيقها، لأنّ ذلك من أعظم أسباب النّهوض بالأمّة، فاتّخاذ الوسائل هو سبب استحقاق حصول موعود الله لهذه الأمّة.

منهج البحث:

لأجل الإجابة على إشكاليّة هذا البحث، وتحقيق الأهداف المرجوّة منه، اعتمدتُ المنهجَ الاستقرائيّ التّحليليّ، اعتماداً على ما ألّفه ابن عاشور ممّا له علاقة بالموضوع، خاصّة

كتابيْ: مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، وأصول النّظام الاجتماعيّ، اللّذان هما عمدة فكره المقاصديّ، والاجتماعيّ، ثم تحليل تلك النّصوص واستنتاج الأفكار الخادمة لغرض هذه الورقة البحثيّة، مع ترتيب مناسب لها.

وقد قسمت هذا المقال إلى مطلبين : الأوّل : في التّعريف بمفردات العنوان، فيه بيان لمفهوم الأمّة، والجامعة الإسلاميّة، والعلاقة بينهما، وترجمة موجزة لابن عاشور.

الثّاني: تناولت فيه المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة والجامعة الإسلاميّة في فكر ابن عاشور، ووسائل تحقيقها.

المطلب الأوّل : التّعريف بمفردات العنوان :

في هذا المطلب، سأحاول بيان المصطلحات التي يتألّف منها العنوان، وذلك من خلال فرعين :

الفرع الأوّل : مفهوم الأمّة، والجامعة الإسلاميّة، والعلاقة بينهما عند ابن عاشور :

أوّلاً : مفهوم الأمّة عند ابن عاشور : يتّضح مفهوم الأمّة عند ابن عاشور من خلال البيان الآتي:

أ/المعاني اللّغويّة لكلمة (الأمّة) عند ابن عاشور :

بالرّجوع إلى تفسير ابن عاشور[1] لكلمة أمّة في القرآن الكريم، نجده في كلّ مرّة يفسّرها بحسب ما يقتضيه سياق ورودها في الآية، وأهمّ هذه المعاني والتّي تخدم موضوع البحث، تأتي الإشارة إلى معنيين جوهريّين وهُما :

❖ **الجماعة الكثيرة أو القليلة المتّحدة في أمر عظيم :** وهذا المعنى يبرزه عنصران، عبّر عنهما ابن عاشور بألفاظ مختلفة، وهما: الجماعة، والأمر المشترك بينها.

* **فأمّا الأوّل**، فقد عبّر عنه بعبارات منها: الجماعة العظيمة[2]، الطّائفة من النّاس[3]، القبيلة[4]، الجذم العظيم، جامع قبائل كثيرة[5].

*وأمّا **الثّاني**، فقد وضّحه كما يلي: جامع له بال (نسب، دين، زمان) [6]، أمرٌ من عظائم أمور الحياة كالموطن واللّغة والنّسب والدّين[7]، أمرهم واحد[8].

فالأمّة بهذا المعنى عند ابن عاشور؛ اسم للجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال، نسبٌ، أو دينٌ، أو وطن، كما تُطلَق الأمّة على الفرق العديدة التي تجمعها جامعة معيّنة.

---

[1]. التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد، ط: الدار التونسية للنشر، تونس (1984).

[2]. ج1/ ص721.

[3]. ج12/ ص188.

[4]. ج14/ ص266.

[5]. ج12/ ص90.

[6]. ج1/ ص721.

[7]. ج12/ ص188.

[8]. ج2/ ص300.

❖ **الجماعة المتفقة على دين واحد :** وهذا المعنى أخصّ من الأوّل، حيث قيّد فيه الأمر الجامع بالدّين، سواء كان حقّاً أو باطلاً، وتبيّنه العبارات الآتية:

دينهم ومعتقدهم واحد[9]، أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه[10]، الجماعة التي اشتركت في عقيدة الإشراك[11]، واحدة في الدين الحق[12].

❖ **الدّين حقّا كان أو باطلاً :** وهنا فسّر كلمة الأمّة بالأمر الجامع وهو الدّين نفسُه، بقوله الأمّة : الملّة والدّين[13].

ب) تعريف الأمّة اصطلاحاً عند ابن عاشور :

سبقت الإشارة إلى ما ذكره ابن عاشور رحمه الله تعالى، من معاني لكلمة "أمّة"، حسب ما يقتضيه سياق الآيات التي وردت فيه، وهي كما يُلاحَظ معانٍ متقاربة، وهي التي شرحها بها اللّغويون ، ولكن الشّيخ رحمه الله، أثناء تفسيره لآية ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المائدة/48).

صرّح قائلاً : "الأمّة بحسب اصطلاح الشّريعة: الجماعة العظيمة الّذين دينهم ومعتقدهم واحد"[14].

ج/ مفهوم الأمّة عند ابن عاشور :

بعد بيان التّعريف اللّغوي وبيان الاستعمال الشّرعيّ لكلمة الأمّة، من خلال تفسير ابن عاشور، يتّضح أنّ مفهوم الأمّة عنده يرتكز على أصلين عظيمين، هما : الجماعة والدّين .

---

[9]. ج6/ ص224.

[10]. ج17/ ص259.

[11]. ج ب-8/ ص104.

[12]. ج11/ ص128.

[13]. ج17/ ص140، وج 25/ ص187.

[14]. التحرير والتنوير، المرجع السابق، ج06/ ص103.

"... فالتركيز في تعريف المصطلح –الأمّة- على الجماعة التي تؤمّ طريقة أو سُنّة أو ملّة أو ديناً...هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى التّركيز في التعريف على الطريقة أو السّنّة أو الملّة أو الدّين التي تُقصَد تُؤمّ"[15].

وقد اعتبر ابن عاشور الدّينَ هو الرّابطة الأقوى، والأبقى، والأرقى، من بين كلّ الجوامع المهمّة التّي تربط بين الجماعة لتصير بها أمّة.

ولهذا المفهوم أهمّيّة بالغة، في حفظ الأمّة الإسلاميّة، وتميّزها، ذلك أنّ دين الإسلام هو الذي جمع النّاس على اختلاف أجناسهم، وأوطانهم، ولغاتهم، وأنسابهم فصاروا رغم كلّ تلك الفوارق أمّة واحدة، فيتقدّم معنى الطّريقة على معنى الجماعة، بحيث إنّ الجماعة تصبح محدودة ومعروفة بالطريقة التي تتّبعها"[16].

وسيأتي مزيد بيان لهذا المفهوم عند الحديث عن الجامعة الإسلاميّة، لِما بينهما من التّرابط .

ثانياً : مفهوم الجامعة الإسلاميّة عند ابن عاشور :

ويتّضح تصوّر الطاهر ابن عاشور لمفهوم الجامعة الإسلاميّة عند من خلال النقاط التّالية :

1/ماهية الجامعة الإسلاميّة، ومكانتها عند ابن عاشور :

لقد بيّن ابن عاشور المراد بهذا المصطلح بأنّه الإسلام، الّذي هو الرّابطة الجامعة للأمّة المسلمة، قال رحمه الله: "...الإسلام الّذي هو الجامعة"[17]، ويتمثّل في وحدة الاعتقاد، والتّفكير، والعمل الصّالح، الّذي به يتسنّى إقامة هذه الجامعة، لتصمد أمام اختراقات الجوامع الأخرى، قال تعالى: ﴿ ... أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ.....﴿١٣﴾ ﴾ الشورى: 13 [18]

وقد بيّن ابن عاشور أنّ الجامعة الإسلاميّة هي أرقى الجوامع، وأقواها، وأدومها، فهي تمثّل ذروة النّضج الفكري، وتمام الاستواء الفطريّ في سلّم التّطوّر البشريّ، وذلك من خلال استعراضه لمراحل الاجتماعات البشريّة حول روابط الأنساب، والأوطان، وغيرها من الجوامع الاصطلاحيّة المادّيّة القاصرة[19].

---

[15] تميّز الأمّة الإسلامية مع دراسة نقديّة لموقف المستشرقين منه، .د إسحاق بن عبد الله السعدي، ج1/ص 110.

[16] .تميّز الأمّة الإسلامية، مرجع سابق، ص110.

[17] .انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص111.

[18] .انظر: أصول النظام الاجتماعي، ص108.

[19] .انظر: أصول النظام الاجتماعي، ص104-107.

2/مظاهر التّجسيد الواقعي للجامعة الإسلاميّة :

لقد بيّن ابن عاشور أنّ الإنسان اجتماعيّ بطبعه، وأنّه منذ فجر التّاريخ سعى للانضمام إلى غيره التفافاً حول عدّة جوامع، لكنّه لم يألف الانضواء تحت جامعة كبرى تتلافى كلّ الفوارق، لذلك لمّا أراد الإسلام جعل النّاس أمّة واحدة، يجمعهم رباط معنويّ هو الدّين الخالد، جسّدها في مظهرين محسوسين، تمكيناً لهذه الجامعة في النّفوس، وهما :

أ/تكوين المجتمع الإسلاميّ :

لمّا اجتمع مع النّبيّ ﷺ العدد الكافي لتكوين الجامعة، كان لزاماً، انضمام بعضهم لبعض، وتوفير الوطن الآمن، فجاء الأمر بالهجرة إلى المدينة[20].

ويُعتَبَر إيجاد المجتمع الإسلاميّ مظهراً محسوساً للجامعة الإسلاميّة، "ولا يكون المجتمع مكمّلا للجامعة إلاّ إذا كان على وفاق مبدأ هذه الجامعة، وقد كان المجتمع الإسلاميّ الأوّل، طبقاً لمبدئها الذي ملاكه الاعتقاد الصّحيح، والعمل الصّالح، فكذلك كان االمجتمع يومئذ مظهراً لذلك الصّلاح في أبهى صوره، وقد احتوى أفضل قوم أظهرهم الله على وجه الأرض بشهادة قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (آل عمران/110)[21].

ب/الأخوّة الإسلاميّة :

تجسيدا لمبدإ الجامعة الإسلامية، وحفاظاً على المجتمع الإسلاميّ ممّا قد يدبّ إليه من شقاق ناتج عن الاختلاف في العادات، بادر النّبيّ ﷺ إلى سدّ ذلك الباب بعقدة الأخوّة بين المهاجرين والأنصار.

فكانت الأخوّة الإسلاميّة، تأييداً نفسيّاً للجامعة الدّينيّة العقليّة قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ....﴿١٠﴾ ﴾ الحجرات:10 [22]

[20].انظر: انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص166.

[21].انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص117، 118.

[22].انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص119.

"واختير لها وصف الأخوّة دون الأبوّة والبنوّة، لأنّها جامعة تماثل في الاعتقاد والتّفكير والعمل، فشابهت تماثل الأخوين، فإنّ الأخوّة يلزمها التّماثل، وترك الكُلفة"[23].

وقد صارت هذه الأخوّة رابطة وثيقة بين المسلمين أينما كانوا...وبهذه القاعدة تسنّى للمسلمين التّعارف والتّواصل والاتّحاد على اختلاف الأمم الدّاخلة في الإسلام، فلم يحفظ التّاريخ لدين ولا دولة ولا دعوة استطاع واحد منها أن يضمّ إليه مختلف الأمم ويجعلهم أمّةً واحدة مثل ما للإسلام من ذلك..[24].

إنّ نسبة الأخوّة تجمع أواصر كثيرة، ففيها: آصرة الانتساب والقرب، وآصرة المحبّة، وآصرة الأُلفة، وآصرة الصّحبة، وآصرة التماثل في الطّباع، وآصرة الارتياح وترك التّكلّف .

ثمّ إنّ وصف الأخوّة يستدعي أن يُبثّ بين الموصوفين به خلال: الاتّحاد، والإنصاف، والمواساة، والمحبّة، والصّلة، والنّصح، وحسن المعاملة[25].

3/العلاقة بين مصطلحي (الأمّة)، و(الجامعة الإسلاميّة) عند ابن عاشور :

من خلال ماسبق من توضيح لمفهوم مصطلحي الأمّة والجامعة الإسلاميّة عند ابن عاشور، نخلُص إلى ما يلي :

*الأمّة: جماعة تشترك في أمر له شأن، ومنه الأمّة الإسلاميّة: الجماعة المشتركة في دين الإسلام.

*الجامعة الإسلاميّة: الإسلام الذي هو الرّابطة للجماعة.

*العلاقة بين المصطلحين: يمكن القول أنّهما يعبّران عن معنىً واحد باعتبار الدّلالة على الجماعة الّتي رابطتها الإسلام، كما يمكن ملاحظة تمايز المصطلحين باعتبار تركيز كلّ منهما على عنصر أكثر من الآخر، فمصطلح الأمّة يركّز على عنصر الجماعة، ثمّ الدّين الذي يربطها، وقد يكون غير الإسلام -حسب السّياق-،أمّا مصطلح الجامعة الإسلاميّة فهو يركّز على تلك الرّابطة الّتي هي الدّين الإسلاميّ الذي يضمّ جماعة من النّاس.

*كلا المصطلحين يتضمّن إشارة إلى الآخر، فإذا أطلق ابن عاشور لفظ (الأمّة) فالمراد بها الأمّة الإسلاميّة، وهذا يتضمّن معنى الجامعة، الّتي هي الإسلام، وإذا قِيل الجامعة الإسلاميّة، فإنّه لا يُتَصوّر دين بغير جماعة تدين به، فلا بدّ أنّه يتضمّن إشارة إلى الأمّة.

[23]. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص119.

[24].انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص120

[25].انظر : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص121.

*لقد استعمل ابن عاشور المصطلحين للتّعبير عن معنى واحد في بعض المواضع، حيث لو استبدلنا أحد المصطلحين بالآخر لما اختلّ المعنى، ولكن الغالب في كلامه رحمه الله، استعمالهما في السّياق حسب المعنيين المُشار إليهما في العلاقة بين المصطلحين.

الفرع الثّاني : التّعريف بالطّاهر بن عاشور :

والمقصود بالبحث هنا ليس استقصاء تفاصيل السّيرة الذّاتيّة والمسيرة العلميّة لهذا العالِم، وإنّما مجرّد ذكرٍ لأهمّ محطّات حياته، مع الإشارة إلى عنايته بالجامعة الإسلاميّة، في فكره المقاصديّ.

1/ترجمة الإمام الطّاهر بن عاشور :

أ/الاسم والمولد :

هو محمّد الطّاهر بن عاشور بن محمّد الطّاهر بن عاشور –سمِيُّ جدّه- وأصل عائلة آل عاشور يرجع إلى مدينة (سلَا) بالمغرب الأقصى[26].

وُلِد سنة 1296هـ/1879م، بقصر جدّه للأمّ بالمرسى القريبة من العاصمة تونس[27].

وينحدر الإمام من أسرة راقية ذات شأن في العلم والجاه، حظي في كنفها بالعناية وحسن التّوجيه إلى طلب العلم منذ الصّغر، خاصّة من طرف والده الشّيخ محمّد ابن عاشور، وجدّه للأمّ الوزير العلاّمة محمّد العزيز بوعتور[28].

ب/المسيرة العلميّة والمهنيّة :

لقد كانت حياة ابن عاشور حافلة بالإنجازات العلميّة، تحصيلا وأداءً، وفيما يلي إشارة إلى أبرز تلك المحطّات :

*حفظ محمّد الطّاهر بن عاشور القرآن الكريم في سنّ مبكّرة، تلقّى تعليمه الابتدائي بين والكتاتيب[29].

*دخل جامع الزّيتونة سنة (1310هـ)، فكان مثابراً، حصل على شهادة التّطويع سنة (1317هـ).

---

[26].انظر: شيخ الجامع الأعظم محمد الطّاهر ابن عاشور حياته وآثاره، د.الغالي بلقاسم، دار ابن حزم، ط1(1417هـ/ 1996)، ص35.

شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمّد الطّاهر ابن عاشور، د.ابن الخوجة محمّد الحبيب، الدّار العربيّة للكتاب، ص21.

[27].انظر : شيخ الجامع الأعظم، ص37.

[28]. شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمّد الطّاهر ابن عاشور، د.ابن الخوجة محمّد الحبيب، الدّار العربيّة للكتاب، ص21.

[29].

*ارتقى في رتب التّدريس، وإدارة الزّيتونة، فأحدث فيها إصلاحات عميقة.

*أُسدِيت إليه خطّة القضاء المالكي، ثمّ سُمّي مفتياً مالكيّاً، وكان أوّل من لُقِّب بشيخ الإسلام المالكي[30].

ج/أهمّ التّراث العلميّ لابن عاشور :

لقد ترك ابن عاشور ميراثاً متنوّعاً، قيّماً، تمثّل في إصلاحاته العميقة لجامع الزّيتونة، وأجيالاً من التّلاميذ داخل تونس وخارجها، إضافة إلى مكتبة زاخرة بالمؤلّفات في مختلف العلوم الإسلاميّة، منها المطبوعة، والمخطوطة، ومنها ما نُشر في الجرائد والمجلّات.

ومن أبرز وأشهر مصنّفاته: تفسير التّحرير والتّنوير، وعنوانه الكامل: (تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، وكتاب (مقاصد الشّريعة الإسلاميّة)، وكتاب (أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام)، وكتاب: (أليس الصّبح بقريب)..[31].

2/مظاهر اهتمام ابن عاشور بالأمّة والجامعة الإسلاميّة :

إنّ الدّارس لمؤلّفات ابن عاشور، خاصّة ما يتعلّق بفكره المقاصديّ يدرك أنّ ابن عاشور كان يحمل هاجس الأمّة، وانتظام أحوال جامعتها، وإصلاح شؤونها، وممّا يشهد لذلك عنايته بفقه الجماعة، ومصلحة الأمّة، والتّنبيه على أهمية ذلك، "والاستدراك على الفقهاء القدامى الذين انشغلوا بإصلاح الفرد دون اتّجاه نحو إصلاح الأمّة والنّهوض بها من جهلها وتخلّفها وتبعيّتها"[32].

وفقه الجماعة والمجتمع والأمّة، بمعنى ضبط أحوال صلاح العمران، وسبل صلاح الاجتماع البشريّ الّذي يحقّق للأمّة نهضتها واستقامتها وكرامتها بين الأمم الأخرى[33].

وقد اعتبر ابن عاشور عند ضبط مقاصد القرآن الكريم في تفسيره "أنّ الغرض الأكبر للقرآن هو إصلاح الأمّة بأسرها..."[34].

---

[30].انظر: موسوعة الأعمال الكاملة تونس وجامع الزّيتونة، محمّد الخضر حسين، اعتنى به: علي الرّضا الحسيني، دار النّوادر، ط1(1431هـ-2010م)، م11/ ص155، 156.

[31]. مؤلّفاته مذكورة بشيء من التّفصيل ةتلخيص لأهمّ محتوياتها في عدّة مراجع ترجمت لابن عاشور، أهمّها: شيخ الجامع الأعظم، د بلقاسم الغالي، و شيخ الإسلام الأكبر، د ابن الخوجة محمّد ابن الحبيب.

[32]. انظر:مقال تجديد مقاصد الشريعة، د.بوعجاجة جمال، مجلّة الحوار المتوسّطي، جامعة تونس، مارس2016، ص275.

[33].انظر : مقال :مقصد حفظ نظام الأمّة مقاربة مقاصديّة، د.عليان بوزيّان، مجلّة المسلم المعاصر، لبنان، 2011م، ع. 140.

[34].التّحرير والتّنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمّد الطّاهر بن عاشور، الدار التّونسية-تونس، ط(1984)،

ومن المظاهر المميّزة لعناية ابن عاشور بالأمّة والجماعة، تقسيماته للمصالح، حيث جعل الأمّة هي المعيار الّذي على أساسه يتحدّد نوع المصلحة، ودرجة قوّتها، ومدى اعتبارها وأولويّتها على غيرها، فجعلها أقساما ثلاثة :

الأوّل : باعتبار آثارها في قوام أمر الأمّة، وهي على ثلاث مراتب: ضروريّة، حاجيّة، تحسينيّة .

الثّاني : باعتبار تعلّقها بعموم الأمّة أو أفرادها، وهي بهذا الاعتبار إمّا كلّيّة أو جزئيّة .

الثّالث : باعتبار تحقّق الاحتياج إليها في قوام أمر الأمّة، وهي إمّا قطعيّة، أو ظنّيّة، أو وهميّة[35].

"فمن الإضافات الّتي تُنسَب للطّاهر ابن عاشور عنايته الفائقة بمصالح الأمّة والمقاصد الجماعيّة والمقاصد العامّة...ولا شكّ أنّ التّركيز على مقاصد الشّريعة على مستوى الأمّة هو الأعلى والأولى باعتبار المقاصد التي تتحقّق بحفظه، وهو ما يجب أن يأخذ مكانته اللاّئقة في الاجتهاد المقاصديّ.."[36].

المطلب الثّاني: المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة الإسلاميّة، ووسائل تحقيقها عند ابن عاشور :

يهدف هذا المطلب إلى الإشارة إلى بعض أهمّ المقاصد الكبرى الّتي سعت الشّريعة لتحقيقها للأمّة الإسلاميّة، مع إشارة إلى أهمّ وسائل تحقيقها، مع محاولة استغلال نصوص ابن عاشور بما يخدم هذا الغرض باتّباع تقسيمات مبتكرة، وذلك من خلال فرعين.

الفرع الأوّل: المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة الإسلاميّة في فكر ابن عاشور:

يتضمّن هذا الفرع إشارة إلى أهمّ المقاصد الكبرى الّتي أراد الشّارع تحقيقها للأمّة الإسلاميّة .

أوّلاً : تحقيق مقصد نفوذ الشّريعة واحترامها في الأمّة :

خلُص ابن عاشور إلى أنّ من مقاصد الشّريعة من التّشريع أن يكون نافذاً في الأمّة، وأن يكون محتَرَما في جميعها، إذ لا تحصل المنفعة المقصودة منه كاملة بدون نفوذه واحترامه[37].

---

[35]. انظر : مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، محمّد الطّاهر ابن عاشور، تحقيق ودراسة: الميساوي محمّد الطّاهر، دار النّفائس، بيروت، ط2(1421هـ/2001م)، ص300 إلى 314.

[36].مقصد حفظ نظام الأمّة، د.عليان بوزيّان.

[37].انظر: مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، محمّد الطّاهر بن عاشور، ص376.

قال عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذّاريات/56)، أي: لإرادتي أن يعبدون[38]...فالحصر المستفاد قصر علّة خلق الله الإنس والجنّ على إرادته أن يعبدوه[39]، وهذا لا ينفي وجود حِكَم أخرى لا نعلمها[40]، ولكنّ هذه أعظمها وأوّلها .

"وإنّ تكاليف الله للعباد على ألسنة الرّسل ما أراد الله بها إلاّ إصلاحهم العاجل والآجل، وحصول الكمال النّفساني بذلك الصّلاح، فلا جرم أنّ اللهَ أراد من الشّرائع كمال الإنسان وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره، وتلك حكمة إنشائه، فاستتبع قوله **"إلاّ ليعبدون"** أنّه ما خلقهم إلاّ لينتظم أمرُهم بوقوفهم عند حدود التّكاليف التّشريعيّة من الأوامر والنّواهي، فعبادة الإنسان ربّه لا تخرج عن كونها محقّقة للمقصد من خلقه، وعلّة لحصوله عادة"[41].

فيُستَفاد من كلام ابن عاشور السّابق أنّ عبادة الله وامتثال شرعه ونفوذه في الأمّة أعظم مقصود لله من خلق بني آدم .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴿٥٩﴾ ﴾ (النساء/59)، **وقال تعالى:** ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأحزاب/36)، **وقال :** ﴿ ....ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ ...﴿٧﴾ ﴾ (الحشر/07)، "فتلكم الأدلّة من القرآن الكريم تدلّ على وجوب الامتثال بما جاء به اللهُ ورسولُه لإخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور، وهذا المعنى يقود الشّريعة الإسلاميّة بين أفراد الأمّة من جهة، وهؤلاء والجماعة من جهة أخرى"[42].

[38].انظر : التّحرير والتّنوير، محمد الطّاهر بن عاشور،ج 27/ ص25.

[39].انظر: التّحرير والتّنوير،ج27/ ص26.

[40].انظر: التّحرير والتّنوير، ج27/ ص27.

[41].التحرير والتّنوير، ج27/ 27.

[42].أهداف التّشريع الإسلامي، د.اليوبي محمّد حسن أبو يحيى، دار الفرقان، ط1 (1405هـ/1958م)، ص140.

ثانياً: تحقيق مقصد القوّة والتّمكين والاستخلاف للأمّة الاسلاميّة :

لقد بيّن ابن عاشور أنّ من مقاصد الإسلام أن تكون الأمّة الإسلاميّة قويّةً، مرهوبةَ الجانب، محترمةً، منظوراً إليها في أعين الأمم الأخرى نظرة المهابة والوقار، يخشون بأسها، ليردعهم ذلك عن مناوشتهم إيّاها، وتكدير صفو المن فيها، قال تعالى : ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ... ﴿١٣﴾ ﴾ (الحشر/13)، وقال ﷺ : **"نُصِرتُ بالرّعب"**[43] [44].

فالشّريعة الإسلاميّة عندما اهتمّت بإصلاح الفرد، وكان هذا الإصلاح أحد مقاصدها، كانت تهدف إلى تحقيق مقصد أصليّ، ألا وهو أن تكون الأمّة الإسلاميّة قويّة، مرهوبة الجانب، مطمئنّة البال[45].

ولن تكون أمّة الإسلام قويّة إلاّ إذا تمسّكت بعقيدتها، وجعلت القرآن الكريم والسّنّة النبويّة وغيرهما من مصادر التّشريع الإسلاميّ مصادر لتشريعاتها في كافّة الأنظمة .

وإذا فعلنا هذا كانت لنا السّيادة والتّمكين على وجه الأرض، مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (النور/ 55)، [46]

"... ولكنّ اللهَ قدّم على وعدهم بالأمن أن وعدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدّين والشّريعة فيهم تنبيهاً لهم بأنّ سنّة الله أنّه لا تأمن أمّة بأسَ غيرها حتّى تكون قويّة، مكينة، مهيمنة على أصقاعها، ففي الوعد بالاستخلاف والتّمكين، وتبديل الخوف أمناً إيماء إلى التّهيّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التّوفيق لهم والنّجاح إن هم أخذوا في ذلك، وأنّ ملاك ذلك هو طاعة الله والرّسول ﷺ"[47].

وسيأتي فيما يلي من مباحث شيء من التّفصيل في وسائل استحقاق التّمكين والاستخلاف في الأرض للأمّة الإسلاميّة .

---

[43] .صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، ج01/ ص371، رقم523.

[44] . انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، الطّاهر ابن عاشور، ص216.

[45] .انظر : مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، الطّاهر ابن عاشور، ص128.

[46] . انظر: تلخيص كتابين: أهداف التّشريع الإسلامي، د.محمّد حسن أبو حيى، و كقاصد الشّريعة الإسلاميّة، د.يوسف العالم، بقلم: سامي بن خالد الحمود، منشور على موقع: صيد الفوائد، .saaid.net، تاريخ الاطّلاع: 2021/06/27م.

[47] . انظر: التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ج18/ ص283.

ثالثا : تحقيق مقصد كمال النّظام وبهجة المنظر للجامعة الإسلاميّة :

جزم ابن عاشور أنّ أهمّ مقصد للشّريعة من التّشريع انتظام أمر الأمّة، وجلب الصّالح إليها، ودفع الضّرّ والفساد عنها، وأنّ صلاح أحوال المجموع، وانتظام أمر الجامعة أسمى وأعظم، وهو المراد من إصلاح أحوال الأفراد[48].

وقد بيّن رحمه الله مراده بهذا المقصد عند حديثه عن المصالح التّحسينيّة، قائلاً: "هي عندي ما كان بها كمال حال الأمّة في نظامها حتّى تعيش آمنة مطمئنّة، ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقيّة الأمم، حتّى تكون الأمّة الإسلاميّة مرغوباً في الاندماج فيها أو التّقرّب منها، فإنّ لمحاسن العادات مدخلاً في ذلك..."[49].

وممّا يندرج تحت هذا المقصد، أن تكون الأمّة عالمة مؤدّبة، "فمن مقاصد الإسلام بثّ علومه وآدابه بين الأمّة، وتكوين جماعات قائمة بعلم الدّين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمّة على ما قصده الدّين منها"[50].

إنّ القارئ لفكر ابن عاشور المقاصديّ، يدرك أنّ فكرته عن كمال انتظام الجامعة الإسلاميّة، وبلوغها درجات الرّقيّ والرّيادة، تتطلّب القيام على عدّة جوانب؛ منها كمال النّظام الجماعيّ فيما يخصّ العلاقات، وما تستدعيه من اتّصاف بمكارم الأخلاق المثمرة للأخوّة والمؤاساة من جهة، وحسن تسيير الولاة لأمور الرّعيّة من جهة أخرى.

وكذا يستلزم تحقيق هذا المقصد مواكبة العصر في مجالات التّعليم والاقتصاد والقوّة العسكريّة، والماليّة، ما يجعل الأمّة بمنظر بهيج، جذّاب، يغري غير المسلمين للانتساب إلى الجامعة الإسلاميّة، ويزرع في نفوس منتسبيها الاعتزاز والطّمأنينة.

الفرع الثّاني: وسائل تحقيق المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة الإسلاميّة عند ابن عاشور :

لمّا كان مقصود الشّارع من أحكامه للأمّة ما سبق الإشارة إلى أصوله، كان ذلك يتضمّن الأمرَ باتّخاذ أسباب تحقيقه، فالقوّة منها ما هو معنويّ، ومنها ما هو مادّيّ، وكلاهما مطلوب، كما أنّ القوّة لها وسائل تتجدّد وأخرى ثابتة، وعلى الأمّة السّعي إليها جميعاً، وفيما يلي بيان لأهمّ تلك الوسائل :

---

[48].انظر : مقاصد الشّريعة الإسلامية،الطّاهر ابن عاشور، ص405.

[49].مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، الطّاهر ابن عاشور، ص307.

[50].التّحرير والتّنوير، الطّاهر ابن عاشور، ج11/ ص59.

أوّلاً : الوسائل المعنويّة :

وتتمثّل أساساً في الجانب الإيماني، وأركان الإصلاح الاجتماعي، وقد قسّمها ابن عاشور إلى ما يتعلّق بالرّعيّة، وما يتعلّق بوُلاة الأمور، مبيّناً أسبابَ القوّة والتّمكين والرّيادة للأمّة الإسلاميّة، وفيما يلي بيان لأهمّ ما دوّنه ابن عاشور في هذا الصّدد مصوغ بطريقة تخدم الموضوع، وغير منقول حرفيّاً.

1/وسائل تحقّقها الرّعيّة للأمّة : وقد خلُصتُ إلى انّها تتمثّل في ثلاثة أسباب رئيسيّة :

أ) الإيمان بالله والاستقامة على شرعه :

توافرت الأدلّة من الكتاب والسّنة المبشّرة للمؤمنين في كلّ زمان ومكان بالنّصر والتّمكين، مع بيان شرط استحقاق ذلك، حتّى صارت بمثابة السّنة الكونيّة، منها قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ ﴾ (النور/55)، والمقصود هنا عمل معظم الصّالحات، ومهمّاتها ومراجعها ممّا يعود إلى تحقيق كلّيّات الشّريعة، وجري حالة مجتمع الأمّة على حالة الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصة، وبحسن التّصرّف في العلاقة المدنيّة بين الأمّة على حسب ما أمر به الدّين أفراد الأمّة كلّ فيما هو عمل أمثاله... والاستقامة في الخويصة هي موجب هذا الوعد وهي الإيمان، وقواعد الإسلام، والاستقامة في المعاملة هي الّتي بها تيسير الموعود به، وقد بيّن اللهُ تعالى أصولَ انتظام أمور الأمّة في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ (النّحل/90)[51].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الأمّة كلّها معنيّة بتحقيق هذا الشّرط؛ رعيّتها وولاتها، قال ابن عاشور: "فمتى اهتمّ ولاة الأمور وعموم الأمّة باتّباع ما وضّح لهم الشّرع، تحقّق وعدُ الله إيّاهم بهذا الوعد الجليل"[52].

[51].انظر: التّحرير والتّنوير، ج18/ ص284.

[52].التّحرير والتّنوير، ج18/ ص284.

كما أمر اللهُ عزّ وجلّ بالابتعاد عن نقيض هذا الشّرط، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ ﴾(آل عمران/ 139)، ...نهى المسلمين عن أسباب الفشل، والوَهَنُ: الضّعف، وأصلُه ضعف الذّات، وهو هنا مجاز عن خور العزيمة، وضعف الإرادة، وانقلاب الرّجاء يأساً، والشّجاعة جُبناً، واليقين شكّاً، ولذلك نُهُوا عنه، وأمّا الحزن، فهو شدّة الأسف البالغة حدّ الكآبة والانكسار...والتّعليق بالشّرط قصد به تهييج غيرتهم على الإيمان[53] ...لأنّ من مقتضى الإيمان الصّبر والثّبات، والرّغبة في إحدى الحسنيين[54].

والإيمانُ بالله يقتضي تقواه وخشيته، والتزام حدوده، بإصلاح النّفس، والعلاقة مع الله، والعلاقة مع أفراد المجتمع من مسلمين وغيرهم، بل حتّى مع المحيط، من حيوان أو جماد.

فالمسلمُ هو الّذي يُفتَرَض فيه أن يكون صالحاً مصلحاً، محسناً في كلّ أموره يعامل ربّه بإخلاص الأعمال، متذلّلا له بالعبادة، متّخذاً أسباب القوّة، المعنويّة والماديّة، معتزّاً بدينه، خادماً لأمّته.

ب) الاتّصاف بمكارم الأخلاق :

يُعتبَر التّحلّي بمكارم الأخلاق من أعظم أسباب كمال انتظام الأمم، ومَلاكُه هو تزكية النّفس الإنسانيّة، بتعويد العقل على إدراك الفضائل، والرّغبة في التّحلّي بها، وتمييزها عن الرّذائل والعزم على اجتنابها.

والغايةُ من الفضائل إبلاغُ النّفس الإنسانيّة إلى أرقى ما خُلِقت له، وأودع اللهُ فيها العقل لأجله، ألا وهو التّميّز عن همج الحيوان[55].

وقد أراد اللهُ لهذه الأمّة من الأخلاق أتمّها وأكرمها، قالﷺ: **"إنّما بُعِثتُ لأتمّم صالح الأخلاق"[56].**

---

[53].انظر : التحرير والتنوير، ج04/ ص98، 99.

[54].تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمّد رشيد رضا (ت1354ه)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط1990م، 04/ 120

[55]. انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص123.

[56]. صحيح الأدب المفرد، الإمام البخاري محمّد بن ابراهيم أبو عبد الله، حقّقه وأخرج أحاديثه: الألباني محمّد ناصر الدّين، دار الصّدّيق للنّشر والتوزيع، ط4(1418ه/1997م)، باب حسن الخلق، ج01/ ص118، رقم: 273، الحديث صحيح.

وجِماعُ مكارم الأخلاق منحصرٌ فيما جعله القرآن والسّنّة، من واجبات، وآداب، وطرائق تعليمها وتنفيذها، وهو مبنيّ قول عائشة ﷺ –لمّا سُئلت عن النّبيّ ﷺ: **"كان خُلُقه القرآن"**[57]،

ومن ثمرات اتّصاف جمهور الأمّة بمكارم الأخلاق؛ سيادةُ الأمن، وانصراف العقول إلى الأعمال النّافعة، وسهولة الألفة بين الجماعات، فتكون عاقبة ذلك كلّه تعقّلاً، ورفاهية، فينتظم المعاش، ويسهل على وُلاة الأمور سياستها[58]، هذا على الصّعيد الدّاخليّ للأمّة.

أمّا على الصّعيد الخارجي، فإنّ انتشار الأخلاق يُعَدُّ "مكوّن عظمة للأمّة، وانتشار سمعتها، وتحديق عيون الأمم في الاقتداء بها، والأخذ من آدابها وفضائلها"[59]، ومن ثمّة التّرغيب في الدّخول في جامعتها.

وقد نصّ ابن عاشور على بعض الأخلاق مخصّصاً لها بالذّكر بعد تعميمه الكلام عن مكارم الأخلاق، لكونها أصولاً لغيرها، ولأهمّيتها البالغة، وأثرها على الصّلاح الفرديّ والجماعيّ، فذكر العدالة، والمروءة، والإنصاف من النّفس[60].

ج) الاتّحاد والوفاق :

لقد أراد اللهُ للأمّة الّتي جامعتها هي دين الإسلام أن تكون متّحدة مؤتلفة، كما مثّل لها النّبيّ ﷺ: **"ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى"**[61].

"فحثّ المسلمين على الاتّحاد ونبذ الخلاف حثّاً مكرّراً، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ (آل عمران/103).. ثم أيّد ذلك بشرع التجمع للمسلمين أفضل المناسبات والأحوال منها صلاة الجماعة، والجمعة، والعيدين، والحجّ، ووضع لهم نواة وحدة اللّغة

[57] .صحيح الأدب المفرد، باب من دعا الله ان يحسّن خلقه، ج01/ ص129، رقم: 234، الحديث صحيح لغيره.

[58] . انظر :أصول النّظام الاجتماعي، ص125.

[59] . أصول النّظام الاجتماعي، ص 126.

[60] . انظر: أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، من ص123، إلى ص133.

[61] .صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، ج08/ ص10،رقم: 6011.

بتشريعه لتعلّم شيء من القرآن[62]، كما أقام للمسلمين قواعد آداب المعاشرة من إفشاء السّلام، والعون على المصاعب، وإجابة دعوة المواكب، وعيادة المريض، وشهود الجنازة، وتعزية المصاب...[63].

ومن المقاصد الّتي يحقّقها الاتّحاد؛ كمال انتظام أمور الجامعة الإسلاميّة، حيث تتّفق الآراء والمساعي نحو صوب واحد، ويبذل الجميع منتهى ما يقدر عليه لصالح الجماعة، وبتعاون الجميع تتمّ الأعمال على أحسن الوجوه، كما أنّه يُكسِب الجامعة الإسلاميّة هيبة في أعين العدوّ حتّى لا يطمع في ثغرات الخلاف بينها[64].

"ومن أهمّ وأدقّ وسائل وحدة الأمّة الإسلاميّة فيما أصّله الإسلام أنّه بثّ أخلاقاً خالصة من مساوئ عادات الأمم كلّها"[65]، ودعا كما سبقت الإشارة إلى التّحلّي بالعدل والإنصاف من النّفس والمؤاساة.

2/ وسائل يحقّقها الوُلاة للأمّة:

وتتمثّل معظم أصول هذا الفرع في القيم الكبرى الّتي تتّفق كلّ العقول السّليمة على حسنها، وتسعى إرادات البشر لتحصيلها، لكنّ الشّريعة الكاملة الخالدة، شريعة الإسلام هي التي أصّلت لها بأحسن الطّرق، وأتمّها، وفيما يلي بيان لأهمّ هذه القيم، التي هي أيضا من أصول النّظام الاجتماعيّ في الإسلام فهي وسائل من جهة، ومقاصد شرعيّة من جهة أخرى .

أ) المساواة :

المساواة لغة: من ساوى الشّيء إذا عادَله، وساويتُ الشّيئين إذا عدّلتُ بينهما وسوّيتُ[66].

وبيّنها ابن عاشور في مصطلح الشّرع بقوله: متى أُطلِقت المساواة فتُحمَل في المتعارف على التّماثل في معظم الأشياء، أو في المهمّ منها، أو في غرض مقصود[67].

---

[62]. انظر : أصول النظام الاجتماعي،ص134.

[63].انظر : أصول النّظام،ص135.

[64]. المرجع السّابق نفسه.

[65]. أصول النظام الاجتماعي، ص136.

[66].لسان العرب، ابن منظور، ج14/ ص410.

[67].انظر : أصول النظام الاجتماعي، ص142.

ويُفهَم من كلامه أنّ المساواة في اصطلاح الشّرع لا يُقصَد بها التّماثل المطلق بين المتغايرين، في كلّ الأحوال، لأنّ أصل الخلقة بين المتغايرين يستلزم التّفاوت، وقد بيّن ابن عاشور أنّ المساواة لها جانبان: الأوّل باعتبارها أدبا إسلاميّاً من آثار الأخوّة، والثّاني أنّها أصل من أصول نظام الاجتماع الإسلاميّ، وهذا الأخير هو المقصود هنا .

وقد جاءت المساواة بهذا المعنى في مقامين: إثبات الحقوق، وفي إقامة الشّريعة، فالأمّة تجاه هذين المقامين سواء إلاّ في أحوال تحقّقت فيها موانع المساواة، إذ أنّ المساواة هي الأصل[68] .

إنّ ترسيخ المساواة في المجتمع كفيل بنزع فتيل الحقد والتباغض بين الأفراد، وامتصاص أسباب الفتنة بين النّاس بما يحقّق الاستقرار والأمن[69]، فهو ممّا يحقّق العدل، والطّمأنينة الاجتماعيّة، ويضبط الحقوق، فترتقي بذلك الأمّة .

ب) الحرّيّة :

وللحرّيّة علاقة بالأصل السّابق –المساواة- فإنّ أحوال المساواة وموانعها كثيراً ما تشابه أحوال الحرّيّة وتحديدها.

والأصلُ اللّغويّ لهذه الكلمة : هو ضدّ الرّقّ والعبوديّة، فالحرّ من ليس بعبد[70] .

وقد بيّن ابن عاشور أنّ هذا المعنى هو المعروف قديماً للحرّيّة، أمّا الاستعمال الحديث لها، "فيُراد منه عمل الإنسان ما يقدر على عمله حسب مشيئته لا يصرفه عن عمله أمر غيره"[71] .

وليستقيم المعنى السّابق مع المعنى المكفول في الإسلام للحرّيّة، لا بدّ من إضافة قيد: (ما لم يخالف الشّرع).

---

[68] .انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص150.

[69] . انظر : تّجديد مقاصد الشّريعة عند الشّيخ الطّاهر ابن عاشور، بوعجاجة جمال، ص273.

[70] .انظر : مختار الصّحاح، الرّازي زين الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر، تحق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط05 (1420/ 1999م)، ج01/ ص69، وكذلك عرّفه ابن عاشور في أصول النظام الاجتماعي ص160.

[71] .أصول النّظام الاجتماعي، ص160.

وقد استعرض ابن عاشور عبر مراحل التّاريخ البشريّ تطوّر أحوال الحرّية والعبوديّة، مبيّناً أنّ الحرّيّة هي الأصل، وقد وضّح أنّ شريعة الإسلام وجدت حكم الاسترقاق عريقاً في نظام الحكم، فراعى ذلك درءً للمفاسد، وشرع من الأحكام ما يقضي على الاسترقاق تدريجيّاً[72].

والحرّيّة المنشودة في الإسلام تنقسم إلى حرّية اعتقاد، وحرّية تفكير، وحرّية قول، وحرّية فعل، وكلّ هذه الحرّيات محدودة في نظام الاجتماع الإسلاميّ بما حدّدت به شريعة الإسلام أعمالَ الأمّة الإسلاميّة في تصرّفاتهم الفرديّة والجماعيّة داخل بلاد الإسلام ومع غيرها من الأمم من جلب المصالح، ودرء المفاسد، وترجيحها عند التّعارض، ومن سلوك أمثل الطّرق لتأمين الأمّة من غوائل العدوّ ومكر المتربّصين[73].

"فالحرّيّة حِلية الإنسان، وزينة المدنيّة، فبها تنمى القوى وتنطلق المواهب، وبصوبها تنبت فضائل الصّدق، والشّجاعة، والنّصيحة بصراحة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وتتلاقح الأفكار وتورق أفنان العلوم"[74].

فالإسلام هو الدّين الحافظ للحرّيّة بمفهومها الموافق للفطرة، المحقّق للمقاصد الكبرى، من رعاية حقوق الآخرين، وحفظ الجامعة، والرّقيّ، والارتقاء بالأمّة في مدارج كمال النّظام واستحقاق التّفضيل والتّكريم على سائر الأمم.

ج) تعيين الحقّ:

إنّ بيان الحقّ وتعيين مستحقّه من أهمّ أصول نظام الاجتماع الإسلاميّ ليكون المسلمون على بيّنة من أمرهم فيما يأتون من الأفعال، وهو مقصد جليل من جهة، ووسيلة لتحقيق مقاصد عظيمة من جهة أخرى، وله علاقة بأصل الحرّيّة إطلاقاً وتحديداً، لأنّ استعمال الحرّيّة مَحوط بسياج الحقوق، وله أيضاً مزيد اتّصال بأصل المساواة للتّمييز بين ما تسري إليه المساواة بالأصالة وبين الحقوق الّتي يراعى فيها التّفوّق[75].

[72].انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص166.

[73].انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص170.

[74].انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص170.

[75].انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص178.

وإحقاقُ الحقّ من محاقّ حكمة الله وعدله، قال تعالى : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨ ﴾ (الأنفال/08)، وقد اعتنى الإسلام بالحقوق، وبيّن عِظم شأنها، ونوّه بها منذ أوائل ما نزل من القرآن، وأعظم حقّ هو حقّ الله تعالى على عباده، وهو توحيده وعبادته، كما أعلن من جهة أخرى حرمة الحقوق وحذّر من اقتطاعها[76].

"وتعيين الحقوق لأصحابها ومستحقّيها هو أساس العدل، لتكون النّاس عل بصيرة فيما يأتون وما يدعون"[77].

يتّضح ممّا سبق، أنّ لتعيين الحقوق مع ما له من علاقة بالمساواة، والعدل، والحرّيّة، أهمّية بالغة في تحقيق انتظام أمور الأمّة، واستقامة أحوال أفرادها، ففي ذلك عون لهم على الاشتغال بواجباتهم وأداء الحقوق الّتي عليهم اتجاه ربّهم، وتجاه إخوانهم، وهم مطمئنّون على استيفاء حقوقهم المشروعة المعلومة.

د) العدل:

والعدل لغة: مشتقّ من المعادلة بين شيئين، فهو مقتضٍ شيئاً ثالثاً وسطاً بين طرفين، ولذلك كان اسم الوسط مُستَعملاً في كلام العرب مرادفاً لمعنى العدل.

وفي اصطلاح الشّرع : هو تمكين صاحب الحقّ بحقّه بيده أو بيد نائبه، وتعيينه قولاً أو فعلاً[78].

والعدلُ ممّا تواطأت على حسنه الشّرائع الإلهيّة، والعقول الحكيمة، وتمدّح بالقيام به عظماء الأمم، فحُسن العدل مستقرّ في الفطرة، وهو من أعظم أصول النّظام الاجتماعيّ في الإسلام[79].

وقد أمر اللهُ بإقامة العدل أمراً جازماً، قال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ (النحل/90)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ... ۝٨ ﴾ (المائدة/08) .

[76].انظر: أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص180.

[77].أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص184.

[78]. انظر : أصول النّظام الاجتماعي، ص186.

[79]. انظر : المرجع السّابق نفسه.

ولا شكّ أنّ العدل من أسس انتظام العمران وهو المتوافق مع الفطرة السّليمة والعقول الحكيمة، وأنّه من أسباب النّصر والتّمكين، بينما الظّلم مؤذن بخراب الأمم واختلال النّظام، وأعظمُ العدل عبادة الله، وطاعته، وأظلم الظّلم الشّرك بالله، وعصيان أوامره .

والأمّة الّتي يعمّ فيها العدل، ترتقي في دَرَج الكمال الإنسانيّ، وتتحقّق لها القوّة والمكانة والهيبة، ويكون لها سلطان روحيّ على غيرها من الأمم، يأسر القلوب حتّى تستسلم للدّخول طوعاً في الجامعة الإسلاميّة .

ثانياً : الوسائل المادّيّة :

1) القوّة العلميّة: توافرت أدلّة الشّرع على الحثّ على العلم قبل القول والعمل، وبيان علوّ شأن العلم والعلماء.

وقد بيّن ابن عاشور أنّ الحثّ على اكتساب العلم حثّ على تحصيل سبب إصلاح الفكر، وصلاح العمل، ووسيلة لإصلاح الاعتقاد، وتكملة لإيجاد الوازع النّفساني[80].

ومن ثمرات العلم تمييز الخبيث من الطّيّب، كما أنّه دليل على الفضائل وقائد إلى الخيرات، يرشد إلى التّكثير منها وحارس عن النّقائص يحذّر من الدّنوّ إليها، فبِه يُعرَف العمل الصّالح .

وقد أشار ابن عاشور إلى مسألة غاية في الأهمّيّة، صارت مَثاراً للجدل، بعد تشعّب العلوم وتنوّع مجالاتها، حيث التبس على البعض ماهية العلم الّذي يحظى بهذا الشّرف المذكور في الشّرع، فقال رحمه الله: "والعلوم شتّى والغايات متفاوتة، والمبحوث عليه منها هو العلم الصّحيح النّافع، وعلامة هذا العلم أن يحصل العمل النّافع بمراعاته ويكون قائد صلاح الدّين والدّنيا، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر/28)[81].

[80]. انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص91.

[81]. انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص 92.

ولا شكّ أنّ التّفقّه في الدّين أشرف العلوم وأولاها بالطّلب، "لأنّ الدّين لمّا كان هو جامع إصلاح النّفوس والأخلاق والأعمال، والدّاعي إلى الإقبال على إصلاح هذا العالم كان الأمرُ بالتّفقّه فيه واستخراج خباياه ضماناً لحصول المقصود منه في نفوس المتفقّهين، وفي نفوس المبلَّغ إليهم"[82].

كما أوضح ابن عاشور أنّ من العلم الشّرعيّ مقداراً يبلغ حدّ الوجوب على الكفاية، وذلك بمقدار ما تتوقّف عليه إقامة الشّريعة ومصالح الأمّة بحيث يتقلّص بدونه سلطانها، أو يتغلّب عليها بفقدانه غيرُها، فهذا المقدار من العلم منه ما هو مُحتَاج إليه دائماً لا يتحوّل مع تحوّل الأزمنة والأمكنة، وذلك علوم الشّريعة ووسائل إقامتها على الوجه الأتمّ .

ومقدار آخر : يتحوّل مع تحوّل الأزمنة والأحوال، وهو ما زاد على ذلك من العلوم الزّمنيّة، أي علوم العصر، وهو غير مشمول لصريح هذه الآية، ولكنّه مندرج في القياس على ما تضمّنته مع رعي المقاصد الشّرعيّة في حفظ مصالح الجامعة الإسلاميّة، وبقدر وفرة العلماء وانتشار العلوم النّافعة يكون ارتقاء الأمّة في دَرج الكمال، وعدّها في مصافّ الأمم المتمدّنة[83].

وممّا لا يخفى أنّ لاكتساب العلم في عصرنا الحاضر أهمّيّة بالغة ودوراً كبيراً في تحقيق المقاصد الكبرى للأمّة وحفظ الجامعة الإسلاميّة، فإنّ التّطوّر الحاصل في شتّى المجالات عند الأمم الأخرى، قد فرض على الأمّة الإسلاميّة التّبعيّة الاقتصاديّة والسّياسيّة، ورضيً بقيود تحمِل الذّلّ والمهانة للأمّة الّتي أعزّها الله بالإسلام، فكيف يتجرّأ على الصّدع بالحقّ من يستورد كلّ ما يحتاج من البندقيّة إلى الإبرة، مروراً باللّباس والطّعام وكلّ الأجهزة؟ وهو يعلم أنّه إن تكلّم مُنِع ذلك كلّه.

إنّ القوّة العلميّة اليوم ضرورة مُلحّة إن أرادت الأمّة استعادة كرامتها وريادتها .

2) **القوّة الاقتصاديّة :** إنّ من أهمّ صفات الدّين الإسلاميّ أنّه دين الوسطيّة، ومراعاة الفطرة، ولمّا كان المال من أهمّ مقوّمات الحياة، ولمّا كان حبّ اكتسابه وحبّ إنفاقه من فطرة البشر، فقد ضبط الشّرعُ قوانين تضمن حسن التّدبير لهذا المورد الحيويّ، الّذي هو من أبرز الرّكائز المادّيّة للقوّة والرّيادة للأمم.

[82]. أصول النظام الاجتماعي، ص93.

[83]. انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص94.

وقد أفاض ابن عاشور وأجاد في بيان أهمّية اكتساب المال والاقتصاد لأجله، والنّظرة الوسطيّة للمال في الإسلام، كما فصّل في بيان مقوّمات المال في الإسلام، ومقاصد التّصرّفات الماليّة[84].

وبما أنّ المقام لا يتّسع لبسط الكلام في كلّ ما بيّنه ابن عاشور، فسأكتفي بالإشارة إلى بعض النّقاط المهمّة، والّتي أراها وثيقة الصّلة بجوهر هذا المقال.

لقد تنوّعت الأدلّة المتعلّقة بالمال ما بين حثٍّ على اكتسابه، وإنفاقٍ له في وجوه الخير، وبين تحذيرٍ من الاغترار والتّعلّق به، وأخرى تنهى عن كسبه وإنفاقه في الحرام، وكلّ ذلك دليل على عناية الإسلام بالمال.

ويؤكّد ابن عاشور على ذلك قائلاً: "المالُ شيءٌ مهمّ لأنّ به قوام مصالح الأمّة وطمأنينتها"[85]، فلا بدّ من توفير المال للأمّة، وسلوك أحسن السّبل في تدبيره، لأنّ "الحاجة ضرب من العبوديّة"[86].

وثروة الأمّة من معايير تصنيفها بين الأمم، ومدى استغنائها عنها، ومقدار قوّتها وحفظ كيانها[87].

كما أنّ التّوسّع في الضّروريّات والحاجيّات والتّحسينيّات المباحة، يحثّ على العمل والتّفنّن في الإنتاج، وهو الّذي عبّر عنه الشّارع بالطّيّبات والزّينة[88].

فالمال إذن وسيلة لتحقيق مقاصد جليلة، به سدّ حاجات الأفراد في معاشهم من مأكل ومشرب وغيرها، وبه زرع التّكافل والمواساة بين الأغنياء والفقراء، وفيه امتحان وفتنة لصدق الإيمان، وإيثار ما عند الله لمن وسّع اللهُ عليه الرّزق، وفيه ابتلاء لمن قُدِر عليه الرّزق في صبره ورضاه، وبالمال تستغني الأمّة الإسلاميّة عن غيرها، فتملك زمام أمورها، ولا تضطرّها الحاجة لقبول المساومات في دينها وثرواتها، فتكون بذلك قويّة مرهوبة، يُحسَب لها حسابها .

---

[84]. انظر : مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، الطّاهر ابن عاشور، ص452 إلى 493، وأصول النظام الاجتماعي، الطّاهر ابن عاشور، من ص190، 205.

[85]. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص198.

[86]. أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص197.

[87]. مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، الطاهر ابن عاشور، ص459.

[88]. انظر : أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، ص 205.

3) القوّة العسكريّة :

أمر اللهُ نبيَّه والمؤمنين بالدّفاع عن دينه، والسّعي لإعلاء كلمته بطرق مختلفة، منها: القوّة الحربيّة، فحرّض على الجهاد في سبيله، إعلاءً لكلمته وإرهاباً للعدوّ.

ولأجل تحقيق القوّة للأمّة الإسلاميّة –حتّى في حالة السّلم- وجعلها مرهوبة الجانب، يخشاها العدوّ، ويتحاشى مناوشتها، أمر اللهُ بإعداد العدّة لذلك، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الأنفال/60)، قال ابن عاشور مفسّراً هذه الآية "والإعداد التّهيئة والإحضار، وقوله في ما استطعتم كلّ ما يدخل تحت قدرة النّاس اتّخاذه من العدّة، والخطاب لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم...فقوّة الجيش شدّة وقعه على العدوّ، وقوّته سلاحه وعتاده، وهو المراد هنا...

فاتّخاذ السّيوف والرّماح والأقواس والنّبال من القوّة في جيوش العصور الماضية، واتّخاذ الدّبابات والمدافع والطّيّارات والصّواريخ من القوّة في جيوش عصرنا"[89].

فالواجب على المسلمين مسايرة التّطوّر في مجال الأسلحة والعتاد الحربيّ، وذلك يستدعي اتّخاذ الأسباب العلميّة والماليّة المشار إليها سابقاً، ومن ثمرات ذلك حتّى في حالة عدم القتال إرهاب العدوّ "أي جعله خائفاً فإنّ العدوّ إذا علم استعداد عدوّ لقتاله خافه، ولم يجرأ عليه، فكان ذلك هناءً على المسلمين، وأمناً من أن يغزوهم أعداؤهم"[90].

خاتمة :

وفي ختام هذا العرض المركّز لموضوع **(مفهوم الأمّة والجامعة الإسلاميّة من منظور مقاصدي عند ابن عاشور)** ، فقد خلُصتُ إلى نتائج أبرزها :

1/ إنّ مصطلحيْ الأمّة والجامعة الإسلاميّة، بينهما تداخل في المعنى، حيث يتضمّن كلّ منهما إشارة إلى الآخر، مع اختلاف في إبراز كلّ واحد منهما لجانب أكثر من الآخر، فالأمّة تركّز على معنى الجماعة ثمّ الدّين، والجامعة تبرز معنى الدّين مع إشارة إلى الأمّة.

[89]. التّحرير والتّنوير، الطّاهر ابن عاشور، ج10/ ص55.

[90]. التّحرير والتّنوير، الطّاهر ابن عاشور، ج10/ ص56.

2/ أهمّيّة التّركيز على عنصر الدّين في التّعريف بمصطلح (الأمّة)، لئلّا يُنحَرَف به إلى مفاهيم أخرى من القوميّات والعصبيّات النّتنة.

3/ لقد حمل ابن عاشور همَّ الأمّة والجامعة الإسلاميّة، في روحه، فبثّه أفكاراً قيّمة في مؤلّفاته المقاصديّة ودراساته الاجتماعيّة.

4/ فضل ابن عاشور وسبقه إلى التّنبيه على ضرورة العناية بفقه الجماعة والخطابات الجماعيّة في نصوص الشّارع، واجتهاده في استنباط المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة الإسلاميّة.

5/ سعي الشّارع من خلال أحكامه إلى تحقيق مقاصد كبرى تعمّ الأمّة الإسلاميّة، تندرج تحتها مقاصد أخرى كثيرة.

6/ تشريع أحكام تحقّق تلك المقاصد الكبرى، أي جعلها وسائل لها، من جهة، مع احتمال كونها مقاصد مطلوبة في ذاتها، بمعنى أنّ بعض الوسائل المذكورة، هي في نفس الوقت مقاصد.

7/ يُلاحَظ وجود تداخل بين المقاصد المذكورة، ويمكن اعتبار ذلك تكاملاً، وكذا الوسائل، فإنّ كلّ واحدة منها تحقّق أكثر من مقصد واحد، لذلك كان التّقسيم بطريقة مبتكرة فيها استغلال لنصوص ابن عاشور بما يخدم غرض المقال.

8/ إنّ شريعة الإسلام المتّسمة بالحكمة في رعايتها للمقاصد، هي أيضاً متّسمة بالعدل والمنطقيّة في مراعاة حصول الأسباب بناءً على مسبّباتها.

9/ جوهر المقاصد الكبرى المتعلّقة بالأمّة أنّ الإسلام أراد لها أن تكون قوّية مرهوبة الجانب، منتظمة جامعتها، مُغرية للغير للانتساب إليها.

10/ تتنوّع الوسائل المحقّقة لمُراد الله من الأمّة الإسلاميّة بين وسائل معنويّة ومادّية، وبين ما يقع الجزء الأكبر منه على عاتق الوُلاة، وبين ما هو من مسؤوليّة الرّعيّة.

11/ إنّ تقسيم الوسائل إلى ما يقع على الولاة، وما تحقّقه الرّعيّة، أمر نسبيّ يُراعى فيه التّغليب، وإلاّ فالجميع له نصيب من كلّ الوسائل المذكورة .

قائمة المراجع :

القرآن الكريم .

01- ابن الخوجة محمّد الحبيب، شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمّد الطّاهر ابن عاشور، الدّار العربيّة للكتاب، (د.ت.) .

02- إسحاق بن عبد الله السعدي، تميّز الأمّة الإسلامية مع دراسة نقديّة لموقف المستشرقين منه، سلسلة الرّسائل الجامعيّة، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، ط1 (1426هـ-2005م).

03- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، ط2، (بدون تاريخ)

04- البخاري محمّد بن ابراهيم أبو عبد الله، صحيح الأدب المفرد، حقّقه وأخرج أحاديثه: محمّد ناصر الدّين الألباني، دار الصّدّيق للنّشر والتوزيع، ط4، 1418هـ/1997م ،

05- الرّازي زين الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر، مختار الصّحاح، تحق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط5، 1420/ 1999م ،

06- الغالي بلقاسم، شيخ الجامع الأعظم محمد الطّاهر ابن عاشور حياته وآثاره، دار ابن حزم، ط1، 1417هـ/ 1996 .

07- محمّد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة تونس وجامع الزّيتونة، اعتنى به: علي الرّضا الحسيني، دار النّوادر، ط1، 1431هـ-2010م .

08- محمّد الطّاهر ابن عاشور، مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، تحقيق ودراسة: الميساوي محمّد الطّاهر، دار النّفائس، بيروت-لبنان، ط2، 1421هـ/2001م .

09- محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، ط: الدار التونسية للنشر، تونس ، 1984 .

10- محمّد حسن أبو حيى، أهداف التّشريع الإسلامي، تلخيص سامي بن خالد الحمود، منشور على موقع: صيد الفوائد، saaid.net، تاريخ الاطّلاع: 2021/06/27م.

11- محمّد رشيد رضا (ت1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط.1990م .

12- مسلم بن الحجّاج أبو الحسن ت(261هـ)، صحيح مسلم (المسند الصّحيح المختصر بنقل العدل إلى العدل إلى رسول الله ﷺ، تحق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت-لبنان، (د.ت.) .

13- اليوبي محمّد حسن أبو يحيى، أهداف التّشريع الإسلامي، دار الفرقان، ط1 ، 1405هـ/1958م

14- يوسف العالم، مقاصد الشّريعة الإسلاميّة، تلخيص سامي بن خالد الحمود، منشور على موقع: صيد الفوائد، saaid.net، تاريخ الاطّلاع: 2021/06/27م.

15- بوعجاجة جمال، تجديد مقاصد الشريعة، مجلّة الحوار المتوسّطي، جامعة تونس، مارس2016، ص275.

16- عليان بوزيّان، مقصد حفظ نظام الأمّة مقاربة مقاصديّة، مجلّة المسلم المعاصر، لبنان، سنة2011م/ العدد 140.